التعاقبات الحضارية والخصائص المعمارية بمدينة تيديس الأثرية

أ.يوعويرة نبيل*

الملخص:

لقد تميزت مدينة تيديس الأثرية بخصائص واستثناءات مهمة جاءت نتيجة سببين مختلفين، تمثل الأول في التنوع التاريخي الذي عرفته المنطقة، وتجسد الثاني في الطبيعة التضاريسية للمدينة، حيث سنسعى هنا للبرهنة على هذه الاستثناءات الناتجة عن هذين السببين، ففيما يتعلق بتأثير التنوع والتعاقب التاريخي فسوف نؤكده من خلال دراسة تطور الأسوار الحامية للمدينة، وأما بخصوص انعكاسات الطبيعة التضاريسية على المدينة فسوف نصورها في أهم ما تميزت به هذه المدينة من استثناءات معمارية.

الكلمات المفتاحية: تيديس، الكاستلوم تيديتانوروم، التحصينات الرومانية، الخصائص المعمارية. المدن الرومانية.

Abstract:

The ancient city of Tiddis is characterized by two important exceptions due to different reasons, the first reason comes in various historical from the region, and the second was manifested in its topography, we will try to prove these exceptions due to these two causes.

Regarding the historical succession we will confirm by the study of the evolution of the city walls, and we also see the architectural features of the city from the effects of its kind topographic.

Keywords: Tiddis, Castellum Tidditanorum, Roman fortress, the architectural specificities, Roman cities

مقدمة:

تعد تيديس واحدة من بين المدن الأثرية ذات الأهمية الكبيرة بالشرق الجزائري نتيجة لطبيعة مخلفاتها التي اعتبرت صورة حية تجسدت فيها أهم

* - طالب دكتوراه في الآثار الإسلامية، جامعة عبد الحميد مهري قسنطينة2 ، الجزائر.

الحضارات المتعاقبة على منطقة شمال إفريقيا وقسنطينة خصوصا، حيث عرفت الوجود الليبي وبعده البوني ثم الروماني والمسيحي وفي الأخير الإسلامي، كما اكتسبت أهميتها أيضا من مجموعة الخصائص والاستثناءات المعمارية التي انفردت بها دون غيرها من المدن، ومنه سنسعى هنا لتقديم صورة نبين من خلالها هذا التراكب الحضاري الذي شهدته هذه المدينة، كما سنسعى لاستخلاص النتائج المنعكسة عن هذا التراكب على طبيعة وآثار المدينة.

وللإشارة فإن هذا العمل كان ميدانيا في أغلب مراحله أعتمد فيه على الوصف الميداني بالاستعانة أحيانا ببعض نتائج حفريات الباحث (Berthier André) كما كانت أغلب الاستنتاجات شخصية مستمدة من نتائج الدراسة الوصفية لمعالم المدينة، وهو الأمر الذي جعل هذا النص يفتقد إلى كثرة الإحالات.

1- التعاقبات الحضارية من خلال المنشآت التحصينية:

إن الشواهد المادية الدالة عل التعاقبات الحضارية بمدينة تديس كثيرة ومتعددة بتعدد معالم هذه المدينة واختلاف أشكالها ومراحلها التاريخية، فالمتتبع لمخلفات هذه المدينة يستطيع أن يكتشف هذا التعاقب التاريخي المنضوي عبر منشآتها، ومن بين أهم المنشآت المعمارية التي ارتسمت فيها مظاهر التعاقب الحضاري نجد البوابة الرئيسية وبقايا الأسوار المحيطة بالمدينة (العمارة التحصينية)، حيث اعتبرت من أهم المعالم المجسدة لهذا التسلسل والتداخل التاريخي، وهو الأمر الذي حملنا على اختيارها دون غيرها كمعيار لدراسة هذا التطور.

1-1) المنشآت التحصينية:

1-1-1) البوابة الشمالية: إن المدخل الشمالي للمدينة قد أستهل ببوابة كوينتوس موميوس روجاتوس(Q Memmius Rogatus) الذي بناها بماله الخاص[1].(صورة01) .

صورة 01: البوابة الشمالية لمدينة تيديس

دعامتي هذه البوابة لها فتحة واحدة ولا يظهر بها أي تزيين معماري، ولقد جاءت هاتين الدعامتين على شكل شبه متوازي المستطيلات يعلوه كورنيش (Corni) يشكل بدوره قاعدة ترتكز عليها جوانب القوس، فيما يخص الكتابة الإهدائية لهذا الباب فقد نقشت بالأعلى في السطح المعمد (Entablemen)، قياسات هذه البوابة كانت كالآتي: 06,60م العلو الكلي، 08,41م العرض الكلي و02,70م عرض فتحة الباب، وعلو الفتحة حتى بداية حدود القوس قدرت ب 03,15 م دعامتي البوابة لهما نفس السمك المقدر ب 3,80م لكن عرضهما غير متساوي حيث قدر في القاعدة الغربية ب 2,70م أما الشرقية فكان 3م، هذا الاختلاف الذي كان سببه الكتلة الصخرية التي تحاذي الدعامة الغربية، ولقد تكونت كل دعامة من هاتين الدعامتين من قاعدة فوقها كتلة مكعبة مبنية ويعلوها كورنيش (Corniche).

- حيث زينت القاعدة بحواف ذات بروز بقياس 20سم.
- أما الكتلة المكعبة المبنية فقد انجذبت عن القاعدة ببعد20سم وهي مكونة من خمسة طبقات من الحجارة، يعلو الخامسة منها الإفريز الذي يشكل بحافته وجها مقابل يشابه حافة القاعدة ويتجه بصفة مقلوبة نحوها، فيما

يخص الحجارة المستعملة في بناء واجهة هاتين الدعامتين فقد اختلفت قياساتها حسب كل طبقة، إذ جاءت أطوالها ما بين 0,47 إلى 1,38م أما علوها فكان ما بين 0,50م و0,65م.

نستطيع أيضا بهذه البوابة أن نلاحظ آثار نظام غلق وفتح البوابة، هذه الآثار التي تجسدت في ثقوب المفصلات(Gonds)، وكذلك في الحز أو الأخدود الذي كان مخصصا لاحتواء القضيب الذي يعمل على سد مصراعي الباب[2]، قوس هذه البوابة تظهر عليها عمليات الترميم ولها ارتفاع 3م وعرض 8,40م، العقد مكون من 12 عمودا أساسي بالإضافة إلى مفتاح العقد (La clé de voute) ذات العلو 0,85 وقد زينت بنقش لسيف (Glaive) (صورة02)

صورة02: السيف المنقوش بمفتاح العقد بقوس البوابة الشمالية

بطول 0,60 م يعلو قبضته شكل نصف دائري، وهو ما يشير إلى الدور العسكري للمدينة التي كانت عبارة عن (Castellum)[3] أما حافته فقد جاءت مثلثة، إلا أن حالة الحفظ غير المستقرة لهذا النحت تصعب من رؤيته نتيجة التآكل الذي مس سطحه وكذلك التغير في لونه، ولقد انتهى هذا القوس من الأعلى بسطح معمد (entablement) احتوى بدوره على:

- الأرشيتراف (Architrave) أو سناده مكون من شفتين أو حزين.
- الإفريز(Frise) وهو الجزء الذي يحتوي على الكتابة، حيث تكون من ست (06) أجزاء غير مكتملة وجدت بأماكن مختلفة أثناء الحفريات.

للعلم فإن هذين الجزأين (الأرشيتراف+الإفريز) قد نقشا في حجارة واحدة وهو الأمر الذي قلل من عرض الإفريز قصد ترك أكبر مكان للكتابة[4]، بخصوص طبقة السطح (Attique) فإنها غير موجودة.
إن الكتابة الإهدائية على البوابة لا تعطي أي تاريخ لكنها توضح بعض خصائص نقش الحروف التي تعود إلى النصف الثاني من القرن الثاني (02) ميلادي[5].

فيما يخص حالة حفظ البوابة فيمكن القول أنها حسنة خاصة بعدما عرفته من عمليات الترميم، التي استطاعت أن تحفظ شكلها العام، وذلك رغم العناصر التي تنقصها، والتي فقدت من قبل مثل طبقة السطح (Attique)، وأيضا الوجه الداخلي للقوس، كما أن بعض حجارة هذه البوابة تتعرض لضعف وتآكل سطحها أو تشققه.

2-1-1) الأسوار الدفاعية والحصون: في نهاية القرن الثالث وبداية القرن الثاني قبل الميلاد وفي الزمن الذي كانت فيه قسنطينة مدينة بونية كبيرة، فإن المنحدر الشرقي لهضبة تيديس قد شغل بدوره بتجمع سكاني، ولحماية هذا التجمع استوجب الأمر إيجاد سور حامية.

إن مسار هذا السور يتجسد في منحنى ذو اتجاهين حيث أن جزء منه يتجه نحو الشرق والجزء الآخر يتجه نحو الشمال، وبالقرب من الحنية التي تربط بين السورين تتواجد البوابة التي أطلق عليها برتبي البوابة البونية الشمالية (صورة03).

صورة03: مخطط لمختلف الأسوار التحصينية بمدينة تيديس عن برتي بتصرف.

إن الجزء من السور الذي يقابل الجهة الشرقية غير متجانس حيث أدرجت به بعض المقاطع المبنية بحجارة متقنة التربيع، وهي إما أن تكون عبارة عن فراغات مسدودة، أو أنه قد أدمجت به واجهة لمعلم ما يشكل بجداره جزء من هذه السور الخارجية[6].

تميزت طريقة البناء بترتيب كل من: حجارة كبيرة غير منتظمة التربيع زائد بلاطات سميكة، بالإضافة إلى الدبش، ولقد نظمت هذه العناصر عن طريق دمج حجارة السند أو الدعم (pierre de Calage) بطريقة قواعد أفقية، كما أن بعض الحجارة الكبيرة قد أدمجت عموديا بعرض الحائط (صورة04).

صورة 04: جزء من السور التحصينية للجهة الشرقية

أما فيما يخص البوابة التي تفصل هذا الجدار فإنها تدخل إلى الحي السفلي بمدينة تيديس، أين يتواجد الكثير من المنشآت البونية، ولقد كان توجه هذه البوابة البونية نحو الشمال، وهي تنفتح على قمة منحدر يتكئ بدوره على جدار دعم، بني بنفس مواد بناء السور السابقة، أحيط جانبي هذه البوابة بحصنين غير متساويين في بروزهما عن هذه البوابة، فقد كان بروز الشرقي ب 2,10 م أما الحصن الغربي فقد برز ب 6,50 م، أما العرض الطبيعي للبوابة فقد كان 2,95م وهذا قبل أن تنقص من عرضه دعامة بنيت في فترة لاحقة[7].

أما في الجانب الآخر من البوابة فإن السور قد غيرت اتجاهها نحو الجنوب حيث يظهر على السور مجموعة من الملاحظات، والتي منها أن السور يلتصق مباشرة مع حاجز صخري يحف الكاردو من الجهة الغربية، ليرسو بعد ذلك فوق الحافة الصخرية التي تشرف على بوابة موميوس، لينتهي في الأخير مرتكزا على الصخر الكبير للمنحدر الشمالي.

وعلى ما يبدو فإن المعماريين الرومان أثناء إنشائهم لطريق الكاردو قد قطعوا جزءا من السور البونية التي أعاقت امتداد الكاردو قليلا نحو الشمال.

إذا كانت السور البونية قد أنجزت للزيادة من مساحة السطح، وذلك لامتداد الأبنية على جهة المنحدر الشرقي للهضبة، فإن برتيي يرى أن سكان فترة فجر التاريخ قد استغلوا فقط أعلى الهضبة التي كانت محاطة بسور خارجية على طول محيطها وعلى كل جوانبها الأربعة.

الواجهة الشرقية من السور المحيطة تظهر بين الحصن الدفاعي للفترة البيزنطية والمنحدر الشرقي، هذا الشطر الذي له طول حوالي 200 م غير متجانس فهو مكون من مقاطع بدائية ترتكز على الصخور ومقاطع أخرى مبنية بمواد بناء أعيد استعمالها وترتكز على رديم. أجزاء البناء السابقة المبنية على الصخر تظهر نمط بنائي يتجدد على طول محيط السور. هنا وتحديدا بالأماكن التي لا تزال تحتفظ ببقايا البناء البدائي فإن هذا النمط البنائي يختلف كل الاختلاف عن النمط البوني حيث أن حجارته كبيرة كما أنها ذات أوجه متعددة وغير مهذبة بدقة كما أن فراغاتها ملئت بالحصى، مما يشرح أن هذا الجدار قد هدم بصفة كبيرة وذلك بعد التوسع السكاني الذي أوجب وصل الأحياء العليا مع الأحياء السفلى، ولقد أعيد إنشاؤه في المرحلة التي تلت الفترة الرومانية وذلك باستعمال حجارة لمعالم رومانية مهدمة[8].

أما بخصوص الثلاث واجهات الأخرى فإن تحصينات فترة فجر التاريخ تظهر بها أحسن حفظا من هذه الواجهة السابقة.

بالواجهة الشمالية يوجد شطر محفوظ معلق على الجدار الصخري الذي يشرف على مضيق (المغارة الساخنة)، هذا الحد الصخري الذي يشكل في ذاته تحصين طبيعي، ثم يستأنف هذا الانقطاع بشطر آخر من جدار أقل قوة لأنه يعلوا منحدرا، إذ استند على جدار صخري عمودي، ولقد بني هذا الجدار من الحجارة المكومة داخل صفين من الدبش الكبير مكونا بذلك واجهة مزدوجة، وهو ينتهي برأس القمة أين ينحني متجها بزاوية مستقيمة.

إبتداء من رأس القمة فإن السور يتجه اتجاها مستقيما ذو محور شمال جنوب، حيث يقسم الهضبة إلى قسمين، فاصلا التجمع السكاني عن الناحية الغربية أين توجد المقبرة الميجاليتية (Mégalithique)، حيث لم يبقى من هذا السور إلا أسسه، وعلى مساره يتواجد الكثير من بقايا الدبش الذي هو نتيجة تهدمه، وعلى بعد 275 م من القمة توجد بقايا باب بجانبيه حصنين بقياسات 2,25م عرض و2,60م بروز، بنيت هذه السور من الدبش المربع الخشن بالإضافة إلى حجارة ضبط (Pierre de Calage) بقواعد أفقية، المسافة بين الحصنين قدرت ب 3,75 م.

هذا الجدار ينتهي إلى حافة المنحدر الشمالي أين يلتصق بسور تحصيني آخر (أ)، وحسب التقسيم المعتمد في مخطط برتي لهذا السور فإن الواجهة الجنوبية لسور الهضبة ستتكون ابتداء من هذا السور (أ) من: حاجزين آخرين هما (ب + د) وحاجز وسيط بينهما (ج)[9].

- فيما يخص البناء بين (أ، ب) فإنه كان بنفس طريقة بناء سور الواجهة الغربية، أما فيما بين (ب، د) فإن السور بني بعناصر كبيرة مقطعة بشطر من جدران مبنية بمواد بناء معالم مهدمة، وقد بني فوق طريق قديم منحوت في الصخر.
- إن استعمال الجدار الصخري الطبيعي (ج) شجع على بناء جدار صغير بهذا الجانب، بالإضافة إلى ذلك فقد وجدت أربعة أسوار متوازية تحد الجانب الجنوبي بين (ب ود) على واجهة بطول 150م.

الحاجز الصخري (د) وجد به فراغ أستكمل بناؤه بجدار مكون من عناصر كبيرة، وابتداء من هذا الحاجز الصخري (د) فإن السور يواصل كل مساره متسلقا حواف الجرف الصخري، وفي المجال الذي ينعدم فيه هذا السور يبرز هناك حصن دفاعي بني بعد الفترة الرومانية (ما يسمى بالحصن البيزنطي) هذا الحصن يبلغ ارتفاعه 05 أمتار، وقد يكون بناؤه من خليط يجمع حجارة غير متقنة التهذيب مع حجارة معالم أخرى قد هدمت، حيث

يظهر أنه قد بني في مرحلة استأنفت فيها الحياة بعد توقفها إذ عمل على تحصين الهضبة بعد أن هجر المنحدر الشرقي[10] (صورة05).

صورة 05: الحصن الدفاعي للفترة البيزنطية

2-1) إستخلاص مراحل التعاقب الحضاري للمدينة: إن دراسة هذه الأسوار التحصينية سمحت بالخروج بمجموعة من النتائج التي تخص مراحل الاستيطان بهضبة تيديس:

- أول الملاحظات تتمثل في أن قمة هضبة تيديس لم تستغل أبدا بصفة كلية من طرف السكان، ولقد قسمت إلى قسمين القسم الجنوبي منها والذي يشرف على واد الرمال، قد بقي فضاء عبادة كما احتوى على قبور الدولمن والمقبرة، أما الجزء الشرقي فقد وجدت به منشآت معمارية باستثناء الحيز الصخري المحيط بالقمة.

- أقدم تجمع سكاني تواجد بأعلى الهضبة تحت حماية سور يمكن إرجاعه لفترة فجر التاريخ، إذا أخذت بعين الاعتبار طريقة بنائه الضخمة، كما أن خراب جزء كبير من هذا السور جاء بعد انتقال التجمع السكاني إلى المنحدر الشرقي، وهذا التوسع كان في الفترة البونية، وهي الفترة التي بني فيها السور

البوني، هذا السور الذي أرخ عن طريق تقنية بنائه، وكذلك عن طريق بقايا الفخار، والنقود التي وجدت بجواره[11].

- توسع المدينة تزايد في الفترة الرومانية وهي الفترة التي لعبت فيها الأسوار دورا أقل أهمية.

- أما في المرحلة ما بعد الرومانية، فإن الاضطرابات المختلفة دفعت سكان تيديس إلى هجر سطح المنحدر الشرقي للتجمع باتجاه الأعلى، وبالتالي إعادة إحياء السور الحامية لفترة فجر التاريخ عن طريق سد كل الفتحات الموجودة بها، هاته الفتحات التي أنجزت قصد تسهيل التواصل بالمدينة في فترات تلت فترة فجر التاريخ.

- وبهذا فإنه وجد بتيديس أثرين للتحصين، الأول وجد لتحصين الهضبة، والثاني أحاط بسطح المنحدر الشرقي للمدينة ومنه فإن الجزء العلوي للهضبة لم يسكن إلا في بداية تاريخ المدينة، وكذلك في آخر مراحل تاريخها، وبين هاتين المرحلتين لم يتوقف التوسع العمراني للمدينة باتجاهه نحو الشرق[12].

من خلال منشآت مدينة تيديس فإنه بالإمكان القول أنها عبارة عن لوحات متكاملة تصورمجموعة من الحلقات التاريخية التي رسمت تاريخ هذه المدينة عبر ما جسدته من معالم يشهد اختلافها على تواجد متنوع من الحضارات الإنسانية التي ساهمت في تطور المدينة منذ فترات فجر التاريخ، أين كانت عبارة عن تجمع سكاني بربري استقر بأعلى الهضبة، مرورا بالفترة النوميدية البونية Numido-Puniqueالتي يظهر فيها استغلال السفح الشرقي للهضبة، وتتبع بعد ذلك بالتواجد الروماني الذي كان من أهم فترات التوسع الذي تشهد عليه أغلب مكونات المدينة الحالية، والتي تشغل كل منحدر وسفح الجانب الشرقي لهضبة تيديس، هذه المرحلة التي أتبعت بفترة بيزنطية تشهد عليها أيضا تلك التحصينات على السور البربرية الموجودة بأعلى المنحدر الشرقي، ولقد انتهت كل هذه الحلقات بالمرحلة الإسلامية التي لم تكن ذات

تأثير واضح على معالم المدينة، حيث تجسد تواجدها في إعادات استغلال المنشآت السكنية شمال الخزانات الكبرى بالإضافة إلى بعض المخلفات الفخارية.

2- الخصائص والمميزات المعمارية بمدينة تيديس:

بهذا فإنه مثلما استطاعت منشآت تيديس أن تشهد على تاريخ غني بالتعاقبات الحضارية للمدينة، فإن هذه المنشآت التي يعود معظمها للفترة الرومانية تشهد أيضا على خصائص ومميزات واستثناءات عمرانية ومعمارية جعلت من تيديس مدينة ذات خصوصية أثرية نادرا ما نجدها في المدن الأثرية الأخرى، وللعلم فإن هذه الخصوصية الأثرية وكما أسلفنا القول لم تكن عفوية بل كانت نتيجة الطبيعة التضاريسية والتاريخية التي ميزت المدينة، ومن بين هذه الخصوصيات الكثيرة نذكر التقسيمات العمرانية التي شهدتها المدينة في الفترة الرومانية، حيث عمل مهندسوها على تطبيق مبادئ العمارة الرومانية التي من أهم أسسها توزع المعالم وتموقعها اعتمادا على شارعين رئيسيين متقاطعين ومتعامدين على شكل محورين، محور شمال جنوب ويسمى كاردو ومحور شرق غرب ويسمى ديكيمانوس وهو المبدأ نفسه الذي طبق في هذه المدينة، لكن الاستثناء يكمن في طريقة تطبيقه، فتقاطع الطريقين وتعامدهما لم يحقق بل كان عبارة عن تلاقي لطريقين في نقطة ما، كما أن الكاردو بالإضافة إلى ضيقه فهو لم يجسد الاتجاه شمال جنوب إلا في الأربعين مترا الأولى التي تلي البوابة الشمالية، بالإضافة إلى انكساره الشديد بعد تلاقيه بطريق الديكيمانوس، إذ انكسر بزاوية حادة توجهه إلى الشمال الغربي بعدما كان متجها جنوبا، ليعيد بعد ذلك وبانحناء آخر توجهه نحو الجنوب، وفي مقابل ذلك فإن الديكيمانوس وفي انطلاقه من الجهة الشرقية لم يكن طريقا بل كان افتراضا جسد على شكل درج يتصاعد إلى أن ينتهي إلى طريق يكمل مساره للالتقاء بطريق الكاردو وهو مكون من ثمان وثلاثين درجة تتخللها خمسة استراحات[13] (صورة06).

صورة 06: الدرج المجسد لطريق الديكيمانوس

ونظرا لالتزام المهندس الروماني بتطبيق مبدأ التعامد الذي لم يتحقق هنا فقد عمل على إعطاء خصوصية إضافية لمدينة تيديس تمثلت في انجاز قوسين بفتحتين، الأولى لها اتجاه شمال جنوب، والثانية شرق غرب وهي تحقق مبدأ التعامد الذي لم يتجسد مع الطريقين السابقين[14] (صورة07).

صورة 07: القوسين الممثلين لتقاطع الطريقين الرئيسيين

ومن بين المميزات الناتجة عن الخصوصية التضاريسية أيضا صغر مساحة المعالم سواء المدنية منها أو الدينية، وهذا ما يتجلى لنا مثلا في مساحة الكنيسة المسيحية وحجم قاعات معبد ميثرا، وكذلك صغر مساحة الفوروم الذي يعد من أصغر الساحات العامة الرومانية بشمال إفريقيا، بالإضافة إلى صغر قاعات الحمامات المحاذية للخزانات الكبرى، وكذلك المساكن الخاصة، هذا الصغر في مساحة الأرضية حتم على بناة المدينة أيضا التصغير في حجم المباني وبالأخص منها مساكن العامة، وهذا قصد ربطها بطوابق علوية وهي التقنية التي تؤكدها الكثير من مخلفات الثقوب المنحوتة في الصخر والتي عملت على احتواء أعمدة الخشب الحامل لتلك الطوابق في الكثير من المعالم التي لا تزال تحتفظ بهذه الثقوب مثلما هو الحال في القاعة (أ) من الفوروم، وبهو معبد ميثرا والغرفة ذات القبو بنفس المعبد، وكذلك المنازل المنحوتة في الصخر جنوب الحصن البيزنطي، بالإضافة إلى تلك الثقوب فقد توضحت تقنية الطوابق أيضا في بعض السلالم أو الأدراج التي انتهت أحيانا إلى مستويات تعلو أسقف بعض الأقبية أو الغرف السفلية مثلما نشاهده في سلالم فيلا الفسيفساء.

وزيادة على هذه الميزات فإن الطبيعة التضاريسية والخصائص التاريخية والاجتماعية قد نتج عنها أيضا تغير في الوجه العام للمدينة من حيث عدم اعتماد بعض المرافق التي توجد في المدن الرومانية عادة، على غرار المسرح الذي لم يوجد بتيديس ربما بسبب نقص المساحة أو لسبب الدور العسكري الذي لعبته المدينة، أو بسبب المستوى الاجتماعي البسيط لطبقة السكان بتيديس التي تعتبر ضيعة صغيرة تخلو من مظاهر الأبهة والبذخ الموجودة في جميلة وتيمقاد مثلا، ومن المنشآت أيضا التي لم توجد بتيديس أقواس النصر والمراحيض العمومية والنافورات.

كما نتج كذلك عن الطبيعة التضاريسية لتيديس خاصية مهمة أخرى تميزت في الاستعمال الواسع للعمارة الصخرية بهذه المدينة (صورة08)، حيث عمل الرومان على تهذيب الصخر ونحته بما يخدم ويكمل بناء المنشآت المختلفة،

فبسبب ضيق المساحة وبسبب الطبيعة الصخرية لغالبية الفضاء المحيط بهضبة تيديس، فقد وجد المعماري الروماني بهذه المدينة أنه مجبرا على استغلال هذه الفضاءات، وذلك رغم ما تمليه من وجوب توفير للوسائل وبذل للجهد، واستهلاك للوقت، حيث تمثل إدماجهم لهذه العمارة في نحت الصخر باختلاف أحجامه للحصول على أوجه جدران وأرضيات بأشكال مختلفة، لتستكمل هذه الأشكال بإضافات مبنية بالدبش أو الحجارة المختلفة، للحصول في الأخير على منشآت مدمجة في تكوينها بين العناصر الصخرية والعناصر المبنية، ولهذا النمط أمثلة وأشكال متعددة من زوايا المدينة، ومن بين أهم المعالم التي تميزت بها معبد ميثرا الذي كانت أغلب جدرانه صخرية، إلا واجهته الشرقية وتسقيفه والواجهة التي تفصل الغرفة ذات القبو عن الغرفة التي تليها، حيث اندثرت كلها تاركة فقط كل ما هو صخري.

صورة 08: العمارة الصخرية بمعبد ميثرا

بالإضافة إلى هذا فقد تجسدت العمارة الصخرية في الصخرة المهذبة التي تشرف على قاعة الفوروم والمقابلة للمنزل الصغير الملحق بالفوروم، حيث

هذبت لتشتمل على غرفتين استكملت واجهتهما الشرقية بجدران مبنية، وهي التقنية نفسها المستعملة في مغارة فيستا(vista) وكذلك المنازل الصخرية بالجهة الغربية للحصن البيزنطي، ولقد تجسدت هذه التقنية حتى في بعض الأجزاء التكميلية للعمارة، كأن ينحت الصخر على شكل كوة مثلا تجسد الحنية التي تتوسط الجدار المقابل لأروقة الكنيسة المسيحية الصغيرة، أو كأن ينحت الصخر لإنجاز سلم أو درج يربط بين طابقين أو يوصل إلى طريق أو يربط مستويين، ولقد استغل الصخر في تيديس حتى في تهيئة بعض الممرات التي هذبت لتكون طرق.

ومن بين أهم الخصائص العمرانية أيضا التي ميزت الطابع العام لمدينة تيديس هي كثرة الخزانات والأحواض المائية، مما زاد حقا في الطبيعة الاستثنائية التي اتسمت بها هذه المدينة، حيث أن ندرة المياه والمنابع بها، وكذلك تضاريسها الوعرة التي صعبت إيصال الماء إليها، ألزمت سكانها بالبحث عن موارد أخرى للمياه تعوض العجز الموجود في هذا العامل الضروري للحياة، وبهذا سعى سكان تيديس إلى الاستغلال الواسع لمياه الأمطار[15]، عن طريق إنجاز ما يفوق السبعين (70) خزانا بمختلف الأحجام موزعة عبر كل أرجاء المدينة لخدمة جميع المنشآت العمومية والخاصة، وهي مربوطة بشبكة مائية تستقطب كل مياه الأمطار التي تنزل بمختلف فضاءات المدينة أكبر هذه الخزانات هي التي تواجدت بأعلى المدينة وهي عبارة عن ثلاثة خزانات مدمجة في خزان واحد حيث بلغت سعتها($350م^3$) متر مكعب. (صورة09)

صورة 09: الخزانات الكبرى بمدينة تيديس

زيادة على التأثيرات الطبيعية التي خلفت الكثير من الاستثناءات العمرانية بمدينة تيديس فإن الجانب الديني أيضا كان له نصيبه في التأثير، هذا التأثير الذي تجسد في كثرة المنشآت والمخلفات الدينية التي تعود لمختلف الفترات التاريخية المتعاقبة على هذه المدينة، ومن أهم هذه المنشآت المعابد التي غزت الهضبة من حدودها الجنوبية حتى أعلى القمة، كما تتدرج على الجانب الشمالي للهضبة ابتداء من المغارات القريبة من بوابة موميوس إلى قمة الهضبة، وهي تتسلق أيضا الجانب الجنوبي الشرقي للمدينة ابتداء من مغارة فيستا(Vista) حتى مركب معبد سيراس(Cereres) هذا بالإضافة إلى كل من معبد ميثرا والكنيسة المسيحية والكابيتول المجاور لبوابة موميوس، وهي كلها منشآت دينية شكلت بتوزعها أغلب معالم المدينة، وجعلت من كل هضبة تيديس فضاء عبادة بالدرجة الأولى، وهذا ما يبرر أحد تسميات المدينة الموسومة بقدس الأقداس.

إذا هذه مجموعة خصائص استثنائية سمحت لتيديس أن تكون مدينة متميزة ذات طابع فريد نادرا ما نجد له مثيل وهي كلها معطيات تزيد من القيمة الحضارية لهذه المدينة وتضاعف من أهميتها التي تقتضي توفير الحماية الجدية والدائمة لما تبقى من مخلفاتها.

وبالحديث عن هذه المخلفات فإنه يجب العلم أن ما تبقى منها من جدران وأرضيات وأعمدة وأقبية وغيرها من عناصر معمارية، كلها تشير إلى طرق وتقنيات بناء معمارية عرفتها مدينة تيديس، وهي في عمومها تقنيات بناء معروفة في مختلف أنحاء العالم الروماني، وبهذا فإن الخصائص والاستثناءات العمرانية التي امتاز بها عمران تيديس عامة لم تنطبق على تقنيات بنائها، ولقد استعمل في بناء معالم مدينة تيديس العديد من التقنيات، والتي كان من أكثرها استعمالا التقنية الإفريقية (OpusAfricanum) [16] حيث بنيت بها أغلب معالم المدينة، لكن استعمال هذه التقنية كان عن طريق بناء جدران من الدبش المتوسط تقطعها فواصل من الحجارة الكبيرة المتعامدة فوق بعضها على شكل أعمدة ذات وضع عمودي، ولا وجود للحجارة الفاصلة ذات الوضع الأفقي، ومن أمثلة هذه التقنية جدران فيلا الفسيفساء والأحياء السكنية المجاورة لها وكذلك جدران معبد (Sereres).

ومن التقنيات المستعملة أيضا التقنية المختلطة (Opus Mixtum) التي وجدت بأنماط عديدة منها (Opus Mixtum à panneaux) التي وجدت بجدران قاعات الفوروم وكذلك جدران حمامات فيلا الفسيفساء، وهي شكل من أشكال كسوة الجدار حيث تجسدت هذه التقنية في بناء جدران من الآجر تتخلله لوحات ذات شكل زائد(+) من الدبش الصغير المنتظم البناء، هذا بالإضافة إلى نوع أخر من التقنية المختلطة (Opus Mixtum à une bande alternée de moellons et de briques)[17] أي القطع الممزوجة بين شريط الآجر والحجارة، وهي التي تواجدت في جدران الخزانات الكبرى وجدران الحمامات المحاذية لها.

بالإضافة إلى ذلك فقد استعمل في تيديس تقنية أخرى وهي تقنية النظام الكبير (Opus quadratum) التي يستخدم فيها الحجارة الضخمة ذات الحجم الكبير (pierre de taille) وتتجلى هذه التقنية في قاعدتي بوابة موميوس وكذلك

الجدار الحامل لساحة الفوروم، بالإضافة للحصن والسور البيزنطي بأعلى المنحدر.

ومن التقنيات المستعملة كذلك تقنية القطع الآجورية (Opus Testaceum)[18]التي يستعمل فيها فقط حبات الآجر المنتظمة، وهي أيضا شكل من أشكال كسوة الجدار والموجهة في العادة إلى المعالم والمنشآت المائية، وأكثر ما تجسدت هذه التقنية بتيديس في الحمامات الكبرى.

ومن أهم تقنيات البناء الحاضرة في تيديس أيضا تقنية (Caementicium) أو خليط الشظايا التي تستخدم كنواة داخلية أو سند للجدران، وهي خليط من الآجر والحجارة الصغيرة مع الملاط، حيث تسمح بإنجاز منشآت أعلى بكثير من تلك المنجزة بالحجر كما أنها اقتصادية وسهلة التنفيذ، وأوضح ما طبقت هذه التقنية بجدران قاعات الفوروم وكذلك أسوار الخزانات الكبرى، وهذا لما لهذين المنشأين من دور معماري مهم يقتضي إعطاؤهما قوة ربط ودعم كبيرة.

تقنية السنبلة أو الحسكة spécatume وتسمى كذلك هيكل السمكة، تستعمل عادة في نهايات الجدران أو كحشو لها أو تستعمل كتبليط وتهيئة الأرضيات، هي أيضا من التقنيات التي وظفت في بناء منشآت تيديس إذ وجدت خاصة في تبليط الأرضيات، وهو الأمر الذي نلاحظه في أرضية حوض الحمامات الصغرى والقاعة التي تليها بالإضافة إلى الحوض الصغير لإحدى قاعات فيلا الفسيفساء وكذلك أرضية قاعة أخرى بنفس الفيلا.

وزيادة على كل هذه التقنيات فقد استعمل بتيديس تقنية(Vittatum) التي اعتمدت على نطاق ضيق، حيث تبرز فقط في أجزاء من المدينة على غرار الأسوار المحيطة بساحة معبد فيستا التي استعمل فيها فقط الدبش المتوسط الحجم بأبعاد متفاوتة نسبيا، هذا الدبش الذي استكملت فراغاته وفواصله في أغلب الأحيان بحصى كبيرة.

إذا هذه كلها مجموعة من تقنيات البناء الرومانية التي جسدتها مخلفات مدينة تيديس، وهي بتنوعها النسبي تشير نوعا ما إلى تفتح الثقافة المعمارية لدى معماريي هذه المدينة ولو بشكل بسيط، وهذا رغم طغيان الطابع الوحيد المتمثل في التقنية الإفريقية.

-خاتمة

بهذا نكون قد عددنا مجموعة مختلفة من الصور التي لاحظنا من خلالها أثر التعاقب الحضاري على مدينة تيديس، وما خلفه من خصوصيات معمارية كانت ناتجة بدورها أيضا عن الطبيعة التضاريسية، والخصوصية العسكرية وكذلك المستوى الاجتماعي لهذه المدينة الصغيرة، التي استعمل فيها المعماري كل ما هو بسيط، متحاشيا بذلك مظاهر البذخ، ومعتمدا فقط على مواد بناء بسيطة، كالحجارة والآجر والملاط، هي كلها مميزات زادت من قيمتها الأثرية الاستثنائية.

-الهوامش:

[1]-Berthier(A), Tiddis, dans R.S.A.C, volume65, 1942, p145.
[2]- Berthier(A), Tiddis, dans R.S.A.C, volume65, 1942, p145.
[3] -أندري برتيي، تيديس القلعة التيديتانية القديمة، ترجمة: العربي عقون، د ت، ص 24.
[4]- Anne marie (L), les arcs de triomphe dédiés a Caracalla en Afrique romaine, doctorat en histoire de l'art et archéologie, université de Nancy2, France 2006, p182
5- IBID. p182.
[6]- Cherbonneau (M), Rapport sur les fouilles des kheneg (Tiddi et Calda), dans R.S.A.C, 1863, p.p170.213.
[7]- Berthier (A), Tiddis cité antique de Numidie, T20, BOCCARD, Paris 2000, p39.
[8]- Berthier (A), Tiddis cité antique…, Op. Cit. p40
[9]-Berthier (A), Tiddis cité antique…, Op. Cit p41.
[10]- Berthier (A), Tiddis cité antique de..…. op.cit. p41.
[11]- Berthier (A), Tiddis cité antique de…. op.cit., p41.
[12]-Berthier (A), Tiddis cité antique…, Op. Cit. p42.
[13]- Abderrahmane Khelifa, Cirta, Constantine la capitale céleste, Colorset Alger 2011, p 26
[14]-Abderrahmane Khelifa, Op. Cit, p 26.
[15]- Cherbonneau (M), Op.cit, p.p170.213.
[16]-Abderrahmane Khelifa, Op.cit. p 26.
[17]- Jean-Pierre (A), la construction Romaine, matériaux et techniques 3eme edition, Paris1995. p.130.
[18]-Jean-Pierre (A), Op. cit. p155.